

طرق العلاج والتداوي في إيالة الجزائر من خلال كتاب "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" لعبد الرزاق بن حمادوش

The methods of medication and treatments in regency of Algeria through the book "Revelation of the enigmas in the exposure of drugs and plants" of ABDELRAZZAQ IBN HAMADUSH

مقصودة محمد

جامعة طاهري محمد، بشار (الجزائر)، histmak12@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/10/30

تاريخ القبول: 2020/10/20

تاريخ الاستلام: 2020/05/31

ملخص

شكلت الأوبئة والأمراض على مر التاريخ خاصة المعدية منها تحديا كبيرا للبشرية، كان لابد من مواجهتها بشتى أنواع التداوي والعلاجات لتقليل آثارها الكارثية. وفي الجزائر العثمانية تعاقبت على المجتمع العديد من الظواهر الوبائية اضطرت معها السكان لتعاطي مختلف أنواع الطب الشعبي التقليدي في ظل غياب الطب الرسمي كنتيجة لغياب سياسة صحية تتكفل بمواجهة الجوائح والأمراض. في هذا السياق يأتي كتاب "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" للرحالة والطبيب عبد الرزاق بن حمادوش، كشاهد على الكثير من طرق العلاج والتداوي المتداولة في الجزائر أواخر الوجود العثماني، فضلا عن كونه عاكس لجهود أحد علماء الجزائر الذين شكلوا استثناء علميا في فترة شهدت ميلا مفرطا للعلوم النقلية على حساب العلوم الأخرى.

كلمات مفتاحية: عبد الرزاق بن حمادوش، كشف الرموز، الجوهر المكنون، العلاج والتداوي، إيالة الجزائر.

Abstract

Epidemics and diseases throughout history, especially infectious ones, have posed a major challenge to humanity, which had to confront them with different types of medication and treatments to reduce their catastrophic effects. In Ottoman Algeria, many epidemiological phenomena ensued in society, with which the population has been forced to practice various types of traditional folk medicine in the absence of formal medicine due to the absence of a health policy to deal with pandemics and disease. In this context, comes the book "Revelation of the enigmas in the exposure of drugs and plants" of the traveler and doctor, ABDELRAZZAQ MUHAMMAD IBN HAMADUSH, as a witness of many methods of treatment and drugs which circulated in Algeria at the end of the Ottoman presence, as well as a reflection of the efforts of one of the Algerian scholars who formed a scientific exception during a period which experienced an excessive tendency to religious sciences to the detriment of other sciences.

Key words: abdelrazzak ibn hamadush, kachef erremouz (revelation of the enigmas), el jouhar el maknoun, medication and treatments, regency of Algeria

مقدمة:

يبحث الموضوع طرق العلاج التداوي المعروفة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك من خلال أحد أهم المصنفات التي أخرجت للناس في عصر وبيئة عز فيها البحث أو التأليف خارج دائرة العلوم النقلية خاصة الدينية منها، رغم أن العناية بالعلوم الطبية مقارنة بغيرها كانت أكبر بسبب حاجة الانسان إلى المعالجة والتطبيب فالمداداة نشأت مع الألم منذ فجر التاريخ ، إلا أن هذه الظاهرة أخذت طابعا أنيا مؤقتا من خلال الأخذ بالأسباب العاجلة دون وجود اتجاه لدراسة الطب والصيدلة في مدارس نظامية، ولعل ما شجع هذه الظاهرة عدم اهتمام السلطة العثمانية بالحياة العلمية عموما ومنها الجانب الطبي أو الصحي للمجتمع الذي ترك يتدبر أحواله بنفسه (SHAW,1980,p.80 ; BERBRUGGER, 1879, p.246)، ولا أدل على ذلك من اتخاذ كبار المسؤولين في الدولة أطباء أجنب سواء من الأعلاج أو من الذين يتم أسرهم عند النزاعات البحرية (أنظر تعليق رقم 1) .

وعليه سنحاول استجلاء بعض طرق العلاج والتداوي السائدة في الجزائر العثمانية من خلال تسليط الضوء على كتاب " كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" الذي ألفه عبد الرزاق بن حمادوش، وجمع فيه مختلف أشكال التطبب وانواع الأدوية والعقاقير المتداولة في الجزائر العثمانية سواء بين العامة، أو تلك التي استطاع وصفها لأمراض بعينها مستفيدا في ذلك من كتب السابقين أو توصل لها عن طريق الملاحظة والتجربة.

وعن أهمية الموضوع فرغم وجود بعض الكتابات الهامة التي نوهت بمدى إسهام العلامة الرحالة الجزائري عبد الرزاق بن حمادوش في مجال تطوير المعارف الطبية و إثراء هذا المجال الحيوي بعيد التأليف ، إلا أن وضع الجائحة الذي بات يعيشه عالم 2020 ، يفرض علينا إعادة طرح سؤال تدوين التاريخ الطبي والصحي للجزائر عبر كل العصور ، والذي أسهم في إثرائه العديد من العلماء والأطباء و في مقدمتهم الرزاق بن حمادوش الذي ترك مصنفات لازالت شاهدة على رسوخ قدمه في مجال الطب والصيدلة، أهمها كتابه الضخم الموسوم " الجواهر المكنون من بحر القانون" خاصة الجزء الرابع منه المعنون " كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" والذي أصبح كتابا مستقلا لأهميته في بابه .

أما السؤال الرئيس الذي يعالجه الموضوع فملخصه، ما الأهمية التي يمثلها مصنف "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" في المجال الطبي الصيدلي، وكيف عكس هذا المصنف طرق العلاج والتداوي التي كان يتعاطاها المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني؟.

سنحاول البحث في هذا السؤال من خلال تفكيكه لمجموعة أفكار نتطرق بواسطتها لجملة محاور أولها التعريف بشخصية بن حمادوش، لننتقل بعدها إلى إلقاء الضوء على أهم ومختلف آثاره العلمية، ومن ثم نركز الحديث حول كتابه كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب والذي سنحاول من خلاله استنباط بعض طرق العلاج والتداوي التي كانت متداولة في إيالة لمواجهة الجوائح والطواعين ومختلف الأمراض .

1. التعريف بشخصية عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري:

هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش عاش خلال القرن الثامن عشر الميلادي، فقد ولد في مدينة الجزائر سنة 1695م، وتوفي بعد تسعين سنة (يرجح المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن تكون وفاته بين سنتي 1782 و1785م) بمصر. وفي الجزائر عايش بن حمادوش خلال عمره الطويل العديد من الأحداث على غرار تحرير واحتلال مدينة وهران، والغارة الإسبانية على الجزائر سنة 1775م (غارة أوريلي)، وتسلب اليهود على المقدرات والاقتصاد الجزائري، فضلا عن الديكتاتوريات المطلقة للدييات الذين طال جلوسهم على كرسي الحكم مثل عبدي باشا (1724-1732م) و إبراهيم باشا (1732-1745) (بن حمادوش، 2011، ص.10).

عاش بن حمادوش فقيرا مما أكسبه هجران الأقارب، ورغم أنه حاول الجمع بين العلم والتجارة التي كان يمتنها والده (كانت أسرته تشتغل بالدباغة) على عادة الكثير من العلماء إلا أنه أخفق في هذا المسعى، بسبب ميله الشديد للكتب التي كان لا يفارقها، وأيضا بسبب بعده عن مخالطة أرباب السلطة والولاة على عادة بعض العلماء رغم تقلده بعض المناصب الدينية. وقد أغرم بطلب العلم وتحصيله واتخاذ جميع أسباب ذلك، فكان كثير القراءة مما أكسبه معارف واسعة وهو ما أشار إليه بقوله " لقد أخذت العلم قراءة وليس عن طريق السماع"، ومعنى ذلك أنه جلس للدرس على يد مشايخ الجزائر قبل أن يشد الرحال شرقا وغربا فكان موسوعي التحمل والأداء(سعيدوني، 1999، ص.432) (أنظر تعليق رقم 2)، وهو ما نلمسه من خلال تعدد مصادر معرفته وتنوع الفنون والعلوم التي صنف فيها. فقد قرأ ولخص كتب الطب القديمة العربي منها والأجنبي، خاصة كتب ابن سينا وابن البيطار وداوود الأنطاكي ورغم أن ثقافته العامة لم تختلف

كثيرا عن السمة العامة التي طبعت الحياة العلمية في عصره، إلا أن الله حباه بميزات أهلته لخوض غمار تخصصات علمية كان العالم الإسلامي قد انسحب منها منذ عصر الأندلس لصالح الغرب ونعني بها ميدان العلوم التجريبية والطبيعية.

من ميزات بن حمادوش شد الرحال ودقة الملاحظة وحب التجربة و الاهتمام بطبائع الناس وغرائب الأشياء، فخلال تنقله بين تطوان وفاس بالمغرب الأقصى لاحظ تغير طبيعة المياه ، وأنواع الأشجار والطيور والحيوانات كما تتبع حركة النجوم وهو سلوك لازمه أينما حل وارتحل، لذلك فإن التجربة الشخصية كانت أهم معلم وأغنى مصادر ابن حمادوش .

وفضلا عن إلمامه بالعلوم النقلية التي كانت سائدة في عصره، نجد ه يميل بطبعه إلى العلوم الرياضية والطبية وكان لرحلاته عبر الحواضر في المغرب والأندلس والمشرق دور في صقل موهبته، فكان صيدليا وطيبيا وفلكيا ومنطقي. ولم يقتصر بن حمادوش على المعرفة النظرية في مجال العلوم الطبية فقد كان يخرج بنفسه إلى الجبال لقطف النباتات والأعشاب ومن ثم دراستها وتحديد خائصها (أنظر تعليق رقم 3) . وهي ميزات أهلته لأن يتقن علوم الطب والصيدلة، حتى أنه وصف نفسه وهو لا يزال شابا بأنه أصبح صيدليا وطيبيا وعشابا، وافتخر بأن كل الأعشاب التي قيدها في كتبه معروفة لديه (سعد الله، 1998، ص.724)، وبهذا فقد استحق وصف آخر ممثل للطب العربي (Leclerc lucien, 1980, p. 310)

ولعل هذه المؤهلات هي التي جعلته يتميز بغزارة الانتاج العلمي الذي استغرق مختلف الفنون والعلوم. ففي مجال التاريخ والأدب اشتهر برحلته الموسومة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" ولعلها الوحيدة بخلاف الرحلات التي كانت من المغرب إلى المشرق حيث كانت نحو المغرب الأقصى، وتضمنت معلومات مهمة غطت الكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية بين سنتي 1743-1748م سواء في الجزائر أو المغرب حتى غدت مصدرا مهما من مصادر تاريخ المغرب الأقصى.

وفي مجال العلوم الطبيعية شملت مؤلفاته عديد الفنون ذات الصلة، فألف عدة رسائل في الفلك والرياضيات نذكر منها :

• تأليف في الفلك جمع فيه التواريخ السبعة

- تأليف في الروزنامة (أنظر تعليق رقم 4)
 - تأليف في الاسطرلاب والربع المقنطر لم يذكر له عنوان (بن حمادوش، 2011، ص. 257).
 - تأليف في صورة الكرة الأرضية
 - تأليف في علم الملاحة البحرية سماه بعلم البلوط (بن حمادوش، 2011، ص. 254).
 - تأليف يتضمن خارطة لإتجاهات رياح البحر رسمها بدقة (بن حمادوش، 2011، ص. 225)
 - تأليف في القوس الذي يأخذ به الأوروبيون حركة الشمس.
- ومن مؤلفاته في علم الحساب و الرياضيات رسالة بغية الأديب من علم التكعيب، أتمه سنة 1730 م.
- فتح المجيب في علم التكعيب أتمه سنة 1747 م
 - تأليف في الرخامة الظلية بالحساب لم يحدد له عنوان (بن حمادوش، 2011، ص. 266).
- ولم تتوقف جهود بن حمادوش التطويرية في مجال العلوم عند الفلك والرياضيات بل تعدتها الى علوم الأسلحة والمتفجرات التي ألف فيها رسالة حول "عمل البونبة" مستفيدا في ذلك مما تعلمه على يدي العليج حسن ومحمد بن البونباني في الجزائر ومن اطلاعه على ما كتبه عبد الرحمان الفاسي ومضيفا عليه خلاصة تجاربه في هذا الميدان، فقد كان يخرج بنفسه الى ضواحي العاصمة لإجراء اختبارات الرمي والمقاسات والأحجام (أنظر تعليق رقم 5).
- أما في مجال الطب والصيدلة فقد كسب قصب السبق بين أقران زمانه منذ أيام شبابه، بفضل قراءته وتلخيصه لأهميات كتب الطب كمصنفات ابن سينا وابن البيطار وداوود الأنطاكي وغيرهم، وكذا اتصاله بطبيب سلطان المغرب مولاي إسماعيل العلوي العلامة عبد الوهاب الأزرق، وهو ما أفاد منه معارف نظرية بالإضافة إلى تجاربه الشخصية في مجال علاج الحمى وغيرها من الأمراض، فأخرج للناس أهم مصنف طبي في عصره عرف بـ "كشف الرموز في شرح العقاقير والاعشاب"، وهو الجزء المتبقي من موسوعته الطبية الموسومة "الجواهر المكنون من بحر القانون" التي وصفها بقوله "كتاب جليل يتوشح به الأصاغر ولا تمججه الأكابر، فيه الأسباب والعلامات والعلاجات، ... وقد جعلته مرتبا على أربعة كتب ..." (سعد الله، 1998، ص. 428).

هذا وقد قسم بن حمادوش "الجوهر المكنون" إلى أربعة أجزاء تطرق في الجزء الأول إلى موضوع السموم وعلاجاتها، وفي الجزء الثاني تطرق للترياقات وطرق إستخلاصها، في حين خصص الجزء الثالث لعلوم الأمراض حيث رتبها طبقا لجدول الطبيب العراقي حنين ابن اسحاق. أما الجزء الرابع المتداول والمطبوع من الكتاب فهو الذي يحمل عنوان "كشف الرموز" فقد تناول فيه بالشرح المفردات (المصطلحات) الطبية (أنظر تعليق رقم 6)، كما تضمن معلومات صيدلانية من خلال التطرق لتعريف الأدوية ومنافعها وأسماء النباتات والعقاقير ضمن مدونة مرتبة ترتيبا هجائيا شملت أكثر من تسعمائة دواء (987 مادة) (غطاس، 1983، ص. 123).

وإلى جانب الجوهر المكنون ألف بن حمادوش رسالة في أمراض وعلاج الأعضاء التناسلية سماها " تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج"، رجح أبو القاسم سعد الله أن يكون بن حمادوش انتهى منه سنة 1748م بمدينة رشيد بمصر. وله أيضا تأليف مجهول العنوان تطرق فيه للطاعون الذي أصاب الجزائر في زمانه (سعد الله، 1998، ص. 431).

2. كتاب كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب:

الكتاب هو الجزء الرابع (أنظر تعليق رقم 7) من موسوعة "الجوهر المكنون" جعله بن حمادوش أقرب للقاموس منه لكتب الشروح، احتوى بعد المدخل (بن حمادوش، د.ت.، ص.3) مادة طبية مرتبة حسب الحرف الأول من الاسم دون مراعات الترتيب الأبجائي متبعا في ذلك منهج داوود الانطاكي في كتابه التذكرة (الأنطاكي، 2015، ص.36)، فذكر أسماء النباتات والأعشاب والمعادن والعقاقير وأوصافها وطرق التداوي بها والمخاطر المتعلقة باستعمالها. وقد تأثر فيه بكتابات ابن سينا وابن البيطار وخاصة كتاب التذكرة لداوود الأنطاكي الذي أخذ عنه بن حمادوش حوالي أربعين مادة، حيث كان كتاب التذكرة معروفا ومنتشرا في الجزائر.

وبالإضافة إلى اقتباسات بن حمادوش فقد تضمن كشف الرموز أدوية جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل دواء مرض السيفيليس (Syphilis) أو الزهري ودواء الكينينا الفعال ضد حمى المستنقعات (شيبان، 1983، ص. 14)، ولعل هذه الميزة التي اختص بها الكتاب هي التي أهلته للبقاء والصمود، فقد وجد فيه الناس ضالهم التي تلبى اهتمامهم بالتداوي وعلاج مختلف الأمراض بالأعشاب والخلطات الطبيعية المتوفرة عمليا، خاصة وأن بن حمادوش تطرق لعدد الأمراض والأدوية التي كانت معروفة في وقته، فذكر خصائص كل دواء وفوائده ومقادير استعماله والأمراض التي يعالجها، وهو ما جعل استعمال الأدوية أمرا ميسورا لدى العامة الذين تهتمهم

المعلومات العملية أما المعلومات الطبية النظرية الصرفة التي احتوتها الأجزاء الثلاث الأولى من " الجواهر المكنون" فلا تهم عادة إلا أهل الصنعة . ولعل هذا المعطى كان هو الدافع وراء اعتناء النساخ بشكل كبير بالكتاب الرابع من "الجواهر المكنون" على حساب الأجزاء الثلاثة الأخرى فكثير تداوله ونسخه ليكتب له البقاء على حساب أصل الكتاب الذي أهمل وضاع كما ضاعت جل مؤلفات بن حمادوش السالفة الذكر ما عدا رحلته (الجزء الثاني) وكتابي كشف الرموز وتعديل المزاج (أنظر التعليق رقم 8).

هذا وبسبب أهمية كتاب كشف الرموز فقد كان محل عناية واهتمام بالغين منذ إكتشافه سنة 1857م (أنظر تعليق رقم 9)، حيث قام الطبيبان الفرنسيان لوسيان ليكليرك (Lucien LECLERC) وغبريال كولان (Gabriel COLIN) باستغلاله والعمل عليه فترجمه ليكليرك إلى الفرنسية ونشر في باريس سنة 1874م في 379 صفحة (Lucien LECLERC, S.D, p.2)، فيما درسه كولان في إطار رسالة دكتوراه في الطب، وفي الجزائر قام كل من السيدين عبد الرحمان الأشرف و أحمد بن مراد التركي المعروف برودوسي قدور صاحب المطبعة الثعالبية بخدمة هذا الكتاب فضبط الأول رموزه فيما نشره الثاني بالعربية سنة 1928م مع فهرست ألفاظه (شيبان، 1983، ص.7)، ثم أعيد ترجمته للفرنسية في الجزائر سنة 1903م وطبع بعناية الطبيب والمستشرق غبريال كولان سنة 1905م (مجاهد، 2018، ص.99).

اتبع بن حمادوش في كتابه "كشف الرموز" المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة متبعاً في ذلك منهج كبار أعلام الطب فابتعد عن الشعوذة والخرافات التي كانت منتشرة آنذاك في مجال التداوي، وللإشارة فإنه لم يعتمد الخمر كنوع من الدواء (Lucien LECLERC, S.D, p.2) (أنظر تعليق رقم 10)، فكان بحق محققاً علمياً وطبيباً متفتحاً على ما كتبه السابقون مع محاولة تأصيل معلوماته حيث يورد التسمية المحلية لكل مادة ويتبعها بنظيرتها عند المصريين أو السوريين مثلاً، كما ذكر عدداً من الأدوية التي دخلت إلى الجزائر من أوروبا في العهد العثماني وأسماء بعضها في اللهجة المحلية . ولعل أهم ميزة امتاز بها كتاب "كشف الرموز" هي منهجيته البسيطة والواضحة البعيدة، فنجده يعرف الدواء ويصفه لينتقل لذكر مختلف تسمياته، ومن ثم خصائصه ومختلف استعمالاته، ولعل مما حبب الناس في كتاب بن حمادوش تحديده للمقادير الخاصة بكل دواء بحسب الموازين المعروفة حينها (سعد الله، 1998، ص. 434) وهو ما سهل

التعاطي مع كتابه والاستفادة منه على أوسع نطاق في مجال الطب الشعبي التقليدي فساهم بذلك في الشفاء من عديد الأمراض.

وبطبيعة الحال فإن هذه المزايا التي اتصف بها كتاب "كشف الرموز" جعلته وصاحبه محل إشادة ومدح من طرف كل من طالع هذا السفر، فقال عنه الطبيب ليكليرك " يمكن أن يعتبر (بن حمادوش) آخر ممثل للطب العربي الكبير" وأضاف " أن المادة الطبية المعروضة في هذا الكتاب بقيت مستعملة في السنوات الأولى من الاحتلال قبل أن يمنع الجزائريون من مزاوله المهنة الصيدلانية والطبية على الطريقة الأصلية" (Lucien LECLERC, S.D, p.2). أما المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله الذي لا يحابي أحدا عند اصدار الأحكام العلمية، فقد رأن يكون بن حمادوش قد بذل جهدا كبيرا في إخراج كتابه " الجواهر المكنون" بكل أجزائه وبذلك فهو يعتبر بحق من أبرز ممثلي الطب العرب والمسلمين في القرن الثامن عشر الميلادي (سعد الله، 1998، ص435).

3. طرائق العلاج والتداوي في الجزائر العثمانية :

بالإضافة إلى المزايا والمعلومات الطبية والصيدلانية التي يقدمها لنا كتاب "كشف الرموز" فإن هناك جانبا آخر لا يقل أهمية خدمه هذا الكتاب ولو بطريقة غير مباشرة، ذلك أن بن حمادوش ترك لنا صورة ومعلومات عن أنواع العقاقير والأدوية ومختلف أسماء النباتات والأعشاب الموجودة في إيالة الجزائر وطرق إستخدامها، وبالتالي أعطانا لمحة عن الطب التقليدي الجزائري وأهم مصادره وكيفية تحضير مستخلصات الاعشاب الخاصة بكل داء وحتى أنواع وطبيعة الأمراض التي كانت منتشرة (أنظر تعليق رقم 11).

ولعل عبارة الطب التقليدي أو الشعبي التي وسم بها الأوروبيون واقع الطب والتطبيب في الجزائر مرجعها إلى اعتماد هذا الأخير على الأعشاب ومستخلصاتها بالدرجة الأولى بعيدا عن التجارب المخبرية أي المنهج العلمي الذي بدأ يشق طريقه في أوروبا، كما يشي التوصيف بالافتقار للطابع النظامي الرسمي ضمن المنظومة الصحية لأي بلد. ولهذا يمكن الحكم على طريقة بن حمادوش في مجال البحث الطبي بأنها الأقرب إلى المنهج العلمي، إذ كانت تعتمد على الملاحظة والتجربة في اختيار الأدوية مما جعله محل إعجاب وثقة من طرف الطبيبين لكليروكولان.

في هذا الإطار يعرفنا بن حمادوش الذي كان كتابه "كشف الرموز" مصدرا لا غنى عنه لمن يريد أن يتعاطى مهنة الطب والصيدلة (أنظر تعليق رقم 12) ، على العديد من أنواع الأعشاب و

الأمراض والأدوية السائدة في إيالة الجزائر من خلال الوصفات التي تضمنها كتابه " كشف الرموز" وبدرجة أقل رحلته المشهورة " لسان المقال". فنجدّه يصف لعلاج الأمراض الجلدية عدة أعشاب يذكر بعضها بمقاديرها مثل نبتة الجلنار وهي أوراق الرمان أو الرمان الذكر، تستعمل للقروح العتيقة ويدمل الجروح، كما يستعمل لقروح الأمعاء ورفع الإسهال ومقدار التداوي منه وزن درهمين (بن حمادوش، 1996، ص.111). ولعلاج مرض الجرب والقروح وصف بن حمادوش عشبة السننا بمقدار وزن أربعة إلى سبعة دراهم ويضاف له الزبيب أو السكر (بن حمادوش، 1996، ص.228). والجنديبا دسر (Djoundoub adastar) وهي الجنديبا أو القسطورة تستعمل لعلاج القروح القتالة وجميع الأمراض العصبية والصداع، بمقدار وزنه فلفل وشربته إلى أربعة قراريط (بن حمادوش، 1996، ص.110).

كما وصف بن حمادوش الكثير من الأعشاب والخلطات الخاصة بأمراض الجهاز الهضمي والقولون نذكر منها الجزر التي سماها جزر بستاني والبطيخ، فالأول يمنع أوجاع المعدة والثاني يستعمل لغسل البطن، وكذلك عشبة الريحان السليماني أو القرنفلي يحلل للزوجة في المعدة (بن حمادوش، 1996، ص.108). أما عشبة الدار صيني أو القرفة الخشنة وهي نوع من القرفة فتقوي المعدة وتدفع الإستسقاء واليرقان، وشربته إلى مثقال (بن حمادوش، 1996، ص.175). وكذلك الغار وهو المعروف بالرند شرابه يرخي المعدة وإذا استعمل مع العسل يداوي قروح الأمعاء (بن حمادوش، 1996، ص.148). والأفسنتين وهو المعروف بشجرة مريم في الجزائر يسهل الخلط الصفراوي وينقي المعدة ويفتح سداد الكبد (بن حمادوش، 1996، ص.13).

ولعلاج أمراض الكلي والجهاز البولي يصف بن حمادوش بعض الفواكه والخضار والنباتات منها التين، حب الصنوبر (الزقوقو)، الحمص (لتفتيت حصى الكلى) والفجل الذي يفتح سداد الكبد وشربه على الريق يفتت الحصى (بن حمادوش، 1996، ص.318). أما لعلاج مختلف الأمراض الباطنية وخاصة الكبد فيقترح ابن حمادوش مجموعة وصفات تختلف باختلاف الأعراض، منها القرنفل الذي يصلح علاجاً بمقادير مختلفة لأمراض القلب والكبد والمعدة والقولون. ومنها الورد بأصنافه كلها وأفضلها الأحمر المسكي الذي ينفع المعدة والكبد والصداع (بن حمادوش، 1996، ص.426).

وبالنسبة للأمراض الصدرية والسعال يصف بن حمادوش كذلك العديد من الوصفات باختلاف الحالة وكمية الدواء الواجب استعماله . من ذلك إكليل الجبل بمقدار خمسة دراهم

يعالج السعال وخفقان القلب (بن حمادوش، 1996، ص.11). ولمداواة السعال الدموي ونفث الدم نستعمل جفة البلوط أو الصنديان وهي القشرة الرقيقة بين اللب والقشر مع وزنه من قشور الرمان شرابا بالسكر (بن حمادوش، 1996، ص.117). وعصير الرمان الحلو وحبه نافع لأمراض الصدر والسعال وخشونة الحلق ويقطع العطش (بن حمادوش، 1996، ص.119).

وبالانتقال لأمراض الرأس يصف لنا بن حمادوش بعض الأعشاب التي تعالج الصداع وغيره، منها الورد الذي تقدم معنا خاصة المسكي منه (بن حمادوش، 1996، ص.426)، والخزامي علاج فعال للزكام واعراضه من صداع وانسداد الأنف كما يقوي الكبد والطحال والقلب (بن حمادوش، 1996، ص.174). أما البابونج فقد نقل بن حمادوش عن دواود الأنطاكي أنه يسمى كذلك تفاح الأرض وأنه يقوي الدماغ ويذهب الصداع ويستفرغ مواد الرأس وشربه إلى ثلاث مثاقيل. ومن نفس المصدر يذكر صاحبنا نبتة الخبيزة التي يسميها بقله يمانية وهي من أنواع الحبق تعالج الصداع والرمم أكلا وضمادا وتزيل القروح والثآليل.

وفي نفس المصدر يشير بن حمادوش إلى نبتة الكمأ أو الترفاس وهي بنات الرعد أي المطر يصلح لعلاج أمراض العيون، ومن أعراضه الجانبية عسر البول والفالج (بن حمادوش، 1996، ص.348). أما أوراق شجرة الكروم (الدالية) أو العنب فتعالج العديد من الأمراض الجلدية كالجرب والقوباء سواء دهن أو شرب عصارة أوراقه (بن حمادوش، 1996، ص.349). والكرنب بمختلف أنواعه يصلح لعلاج البلغم والحروق على حسب الاستعمال والمادة المضافة إليه (بن حمادوش، 1996، ص.351). أما الأقحوان وهو البابونج الأبيض أو الكافور فيفتت الحصى وينفع من الاستسقاء والنفخ ونفث الدم والسعال والربو وخصوصا مع السكنجبين (الزنجبيل) وشربته إلى ثلاثة دراهم (ابن حمادوش، 1996، ص.36)، وللبلغم أيضا كان السكان يستعملون عشة أزاز التي تعالج أيضا الجرب والقواحي وقرع الرأس، وكان اليهود في مدينة الجزائر يشربون عوضا عن الشاي عشة أسفاقس ويسمى بالسالمة وهو سواك النبي، ونبات السمار المسى أسل يحلل الأوجاع إذا إستعمل كضماد وينفع من الإستسقاء والسهر (الأرق) وشربته إلى درهمين (بن حمادوش، 1996، ص.47).

والبقلة الحمراء وهي الشجيرة المعروفة بالرجلة فتتفع المواد الصفراوية (أمراض الكبد) وشربة عصارتها إلى ثماني عشرة درهما. وينوه بن حمادوش كثيرا بفوائد نبات بزر كتان أو زريعة

الكتان، الذي تختلف منافعه باختلاف المواد المضافة إليه، ويبدو أنه كان شائع وكثير الاستعمال في زمانه، حيث كان يضاف إليه العسل لعلاج الإمساك ومتى دق وضرب بالشمع والماء الحار حلل الأورام وسكن الصداع المزمن، وإذا شرب أنضح أورام الرئة ونفت الدم خصوصا المحمص ويذر الفضلات كلها، ويصلح دواء للبرص والكلف وأوجاع المفاصل. أما البقل وهو الفول فيصلح دواء ويزيد في خصب البدن إذا استعمل مع الزعتر والزيت والزنجبيل (بن حمادوش، 1996، ص. 76).

والملاحظ من دراسة كتاب "كشف الرموز" أن صاحبه لم يكتف بوصف الداء وعلاجه والمقادير اللازمة، وإنما تعداها إلى ذكر الأعراض الجانبية لكل دواء وبتفصيل مهم غالبا ما يربطه بالمادة المضافة للدواء أو العشبة الأصلية. كما أن بن حمادوش يصف الأفيون أو العفيون وهو صمغ الخشخاش كنوع من أنواع المسكنات، الأمر الذي ينبئ عن استخدام هذه النبتة في إيالة الجزائر بشكل واسع إلى جانب البنج أو السيكران لتسكين الأوجاع والتسمين (بن حمادوش، 1996، ص. 63).

والحقيقة أنه لا يمكننا الإحاطة في هذه المساحة المتاحة بكل ما جاء في موسوعة بن حمادوش الطبية، وحسبنا ما ذكرناه، لننتقل إلى الإشارة لبعض الأفكار ذات الصلة لا تقل أهمية وردت في رحلة "لسان المقال"، منها دواء الحمى المعروف بالكين كينا (Quinine)) أنظر تعليق رقم 13) الذي وصفه وأشاد به المؤلف بعد استعماله في علاج الحمى ولاشك أنه كان شائع الاستعمال في الجزائر (بن حمادوش، 2011، ص. 84).

كما نستفيد من رحلة بن حمادوش معلومة تتعلق بتطبيق نظام الحجر الصحي تفاديا لتفشي الأمراض، خاصة وأن الموقع الجغرافي للجزائر يجعلها عرضة لانتقال وانتشار العدوى بسهولة إذا لم يتم التعامل مع الأوبئة والطواعين بحزم. وفي هذا السياق فقد تم تطبيق الحجر على مركب عائذ بحجاج بيت الله قادم من الإسكندرية وفيه الوباء، فمنعهم الباشا الدخول والنزول من المركب لمدة خمسة عشر يوما حتى تحقق سلامتهم (بن حمادوش، 2011، ص. 121).

إلا أن هذا الإجراء لا يعني أن الحكام العثمانيين كانوا ملتزمين باتخاذ إجراءات الوقاية كنظام الحجر في إطار سياسة صحية ثابتة، بل إن عديد المصادر تؤكد أنه كثيرا ما كان يسمح للسفن الموبوءة بالرسو في الموانئ، وهو الإجراء الذي كان سببا في تفشي الأوبئة، مما دفع السكان إلى حماية أنفسهم من خلال عدة من خلال عدة إجراءات كلزوم المنازل والبقاء فيها طيلة فترة

ظهور الوباء، وفي الأرياف كان الناس يهرعون للأماكن البعيدة عن مناطق الوباء (مجاهد يمينة، 2018، ص.19).

والذي نخلص إليه أن كتاب كشف الرموز يبقى شاهدا على طبيعة المعارف الطبية والأمراض والأدوية السائدة في الجزائر أواخر الوجود العثماني، والمكونة لمنظومة الطب التقليدي باعتباره تراكم لموروث حضاري لم يكن للسكان بد منه في ظل غياب سياسة صحية رسمية تتولى رعاية السكان.

خاتمة:

من خلال ما تقدم نخلص إلى جملة الاستنتاجات التالية:

- إن الظرفية التاريخية التي ألف فيها بن حمادوش موسوعته الطبية تؤكد أن الرجل كان يتمتع بقدرات علمية كبيرة جعلته ينتبه إلى أهمية العلوم التقنية التجريبية إلى جانب العلوم النقلية، وهو ما يشكل استثناء بالنسبة لثقافة معاصريه و تحديا لحالة التردّي وتراجع الاهتمام الرسمي بتطوير الحياة العلمية في عموم العالم العربي منذ القرن السابع عشر ومنه الجزائر.
- إن آثار بن حمادوش وإسهاماته في مجال العلوم الطبية والصيدلانية والرياضية تدل على أن اهتماماته العلمية كانت في محلها من حيث البعد الحضاري، وأن أهم شيء كان يعوزها هو الرعاية الرسمية من طرف الدولة، ولعل هذا ما جعل المؤرخ أبو القاسم سعد الله يصنف بن حمادوش إلى جانب قليلي الإيطالي ونيوتن الإنجليزي من حيث الروح والتمرد على معايير العصر والإيمان بالعلم . وبالمقابل يؤكد تأخر اكتشاف أهمية مصنفات بن حمادوش الطبية عدم اهتمام السلطة العثمانية في الجزائر بهذا المجال الحيوي، سواء من حيث تبني سياسة صحية أو توفير الرعاية الصحية للسكان الذين تركوا لحالهم، في حين كان الحكام يتخذون الأطباء من الأعلاج أو الأسرى رغم وجود كفاءات طبية محلية على غرار بن حمادوش وغيره .
- في ظل غياب الطب الرسمي خلال العهد العثماني لجأ الجزائريون للطب التقليدي، مستفيدين في ذلك من تجاربهم وخبراتهم وتراثهم، ومستغلين لمختلف الثروات النباتية والحيوانية التي تزخر بها البلاد لمواجهة عديد الطواعين والأوبئة الفتاكة التي أثرت على البنية الديمغرافية والاقتصادية.

- إن من أهم التحديات التي تطرحها جائحة كورونا الحالية هو ضرورة إعادة الاعتبار للتاريخ الطبي والصحي، كونه يشكل جزءا لا يتجزأ من الثقافة والتراث المادي واللامادي للشعوب، يمكن الاستفادة منه لبناء منظومة صحية تحفظ الأمن القومي، بعد أن كشفت الظروف والمعطيات الحالية أن هذا الأخير رغم دعائمه الكثيرة إلا أن أهمها على الإطلاق منظومتي التعليم والصحة، ومما لاشك فيه أن تاريخ الجزائر الصحي والطبي الطويل والمتراكم عبر السنين لازال في أمس الحاجة لنفض الغبار عنه باستغلال مصادره ومادته المعرفية الغزيرة وبالتالي الاستفادة منها والبناء عليها .

الهوامش والتعليقات:

- (1) تجمع عديد المصادر على حالة التردّي العام التي كانت تعرفها الجزائر على المستويين المعيشي والصحي خلال العهد العثماني بسبب توالي الكوارث الطبيعية من جهة وانعدام الاهتمام الرسمي والشعبي بالخدمات الطبية وطلب العلوم الطبية فضلا عن ممارستها. وقد شكل الأطباء الأسرى في إيالة الجزائر موردا هاما للخزينة من حيث تكاليف افتدائهم، كما أثروا الحياة الطبية والصحية عموما واستفاد العثمانيون من خدماتهم وخبرتهم بشكل كبير. من أشهر هؤلاء الأطباء الأسير الألماني سيمون بفايفر صاحب كتاب " مذكرات جزائرية عشية الاحتلال " والذي كان طبيبا للداي حسين قبل توليه المنصب وحتى عزله من طرف الاحتلال الفرنسي (1825-1830م)، الطبيب مانويل مورللو أسر سنة 1649م، الطبيب صانسون طبيب باي قسنطينة حسين بوكمية (1713م)، الطبيب الإيطالي ميلشيو غيلاندين أسر بالجزائر خلال الفترة 1557-1561م، الطبيب أندرهيل الذي تمكن بفضل ممارسة مهنة الطب من افتداء نفسه من الأسر بعدما جمع أموالا طائلة، الطبيب الإيطالي باسكال غاميزو الذي كان طبيبا للباي صالح باي قسنطينة سنة 1771م، وبالإضافة إلى هذا النوع من الأطباء تواجد في إيالة الجزائر بعض الأطباء الأوروبيين الأحرار الذي إما جاءوا في إطار رحلات استكشافية أو اختاروا الدخول في خدمة الحكام والاستفادة من الامتيازات.(لزغم، 2013، ص.254 ; وولف، 2009، ص. 47 ; 142) (Khiati ,S.D,p.
- (2) من مشايخ بن حمادوش في الجزائر المفتي محمد بن نيكرو والمفتي الرحالة أبي العباس أحمد بن عمار صاحب رحلة " نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، والقاضي مصطفى بن رمضان العنابي، والقاضي الأديب محمد بن ميمون الذي كان يسميه شيخنا والعشاب محمد كحنجل الذي تعلم منه أنواع وخصائص الأعشاب. ومن شيوخه في المغرب أحمد الوردازي ومحمد البناني وأحمد بن المبارك بفاس والشيخ محمد زيتونة بتونس (سعيدوني، 1999، ص.432)
- (3) هذا الصدد يقول بن حمادوش في رحلته: " وفي ثاني عشرة خرجت مع بعض الإخوان أحدهم يعرف الأعشاب لتتعلم منه، فتعلمت الأفتمون. قطعنا منه ما شئنا في جبل بومعزة تحت بوزريعة" (بن حمادوش، 2011، ص.120).
- (4) تحدث بن حمادوش عن مؤلفه الروزنامة ضمن رحلته فقال: " وفي يوم الجمعة ثامن من محرم ثم يوم الجمعة ألفت الروزنامة" (بن حمادوش، 2011، ص.110).
- (5) يقول بن حمادوش في شأن التجارب التي كان يجريها بأعلي مدينة الجزائر بخصوص تطوير المتفجرات أو كما سماها "البونبة" : " ... إلى يوم السبت ...خرجت لباب الواد مع أسط محمد ابن الميوناجي بمهراس صغير لتتعلم رمي البونبة ، فتمت ما بقي لي والحمد لله، وأخذت علم البونبة بارتفاعها وتعميرها ورميها وعجن بارودها، فأنا من علمائها والحمد لله وجمعت فيها إلى تأليف سيدي عبد الرحمان الفاسي" (بن حمادوش، 2011، ص.254 وبن حمادوش، 2005، ص.27).

- (6) يقول بن حمادوش في شأن الكتاب الرابع من الجوهر المكنون " ونويت أن أجعل الكتاب الرابع في حل ألفاظ المفردات وتعريفها ما أمكن" ولعل المراد من تعريب الالفاظ ذكر ما يقاها في اللهجة المحلية وهو ما قام به فعلا في كشف الرموز(بن حمادوش، 2011، ص.161).
- (7) من القرائن التي جعلت الباحثين يتفقون على اعتبار كتاب "كشف الرموز" ليس بكتاب مستقل وإنما هو الجزء الرابع من "الجوهر المكنون" مقدمته التي جاءت خالية من الأفكار المعتاد وجودها في مقدمة الكتب كالتعريف بموضوعه وخطته، وكذا ما أشار إليه ان حمادوش في رحلته مما تقدم معنا من قوله: "...ونويت أن أجعل الكتاب الرابع (أي من الجوهر المكنون) في حل ألفاظ المفردات وتعريفها ما أمكن" (بن حمادوش، 2011، ص. 161; سعد الله، 1998، ص. 432).
- (8) مما يدل على أن عبد الرزاق بن حمادوش أكمل كتاب الجوهر المكنون بأجزائه الأربعة ما ورد على لسانه في الرحلة: " ويوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول تمت الجوهر المكنون من بحر القانون في الطب...." (بن حمادوش، 2011، ص. 162; سعد الله، 1998، ص. 432).
- (9) تذكر بعض الدراسات أن الطبيب الفرنسي لوسيان ليكليرك تعرف على كتاب "كشف الرموز" بواسطة أحد الجزائريين سنة 1861 م ، وبعد أن وقفا على أهميته قام رفقة غابريال كولان بترجمته ونشره في مجلة: la gazette médicale de . 1873-1866 l'Algérie (مجاهد، 2018، ص.99).
- (10) إن امتناع بن حمادوش عن اعتماد الخمر كمصدر من مصادر الدواء جاء عملا بما ثبت في الشريعة الإسلامية في هذا الباب، فقد روى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله " إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بحرام" ، وقول أبي هريرة له " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء الخبيث " وفي صحيح مسلم أن الصحابي طارق بن سويد سأل النبي عن التداوي بالخمر فهاه ، فقال إنما أصنعها للدواء، فقال " إنها ليست بدواء ولكنها داء".
- (11) عرفت إيالة الجزائر خلال العهد العثماني أنواعا من الطب أهمها الشعبي المحلي المتوارث المستفيد من التراكم الحضاري خاصة العربي والأندلسي، وكذلك الطب العثماني ذو الطابع العسكري لتغطية احتياجات الجيش والجنود في هذا المجال، وتخلل هاذين النوعين الطب الأوروبي الذي دخل البلاد عن طريق الأسرى والأعلاج والرحالة ورجال الدين وغيرهم وكان يستفيد منه الحكام بالدرجة الأولى وبعض الأسرى المسيحيين . أما بالنسبة للصيديات فيبدو من بعض الشهادات أنها كانت قليلة جدا كون التداوي كان محلي وقد يحضر الدواء نفس الطبيب الذي يشخص المرض. يقول الرحالة والطبيب الدانماركي أ ف شونبيرغ بهذا الصدد " كانت أول صيدلية شاهدتها صيدلية تركية حضرية، صاحبها بيطري وجراح وصيدي، وقد اعتذر عن قلة الأدوية التي تحتويها صيدليته... لكنها كانت فضلا عن ذلك واطئة ومظلمة" (بوحجرة، 2015، ص. 119 ; شونبيرغ، 2009، ص.39).
- (12) يذكر الطبيب الدانماركي شونبيرغ أنه زار في مدينة الجزائر أحد أكبر الصيديات التي جمع صاحبها بين الطب والجراحة والصيدلية ، ويصفه بالماهر لأنه أخيره بامتلاكه كتابا طبيا ممتازا، يقصد به كشف الرموز لعبد الرزاق بن حمادوش.(شونبيرغ، 2009، ص. 41).
- (13) الكين كينا أو الكينين (QUININE)، دواء يستخرج من شجرة الكين كينة المتواجدة في المناطق الاستوائية خاصة أمريكا اللاتينية كالبيرو، من خصائصه خفض الحرارة وتسكين الالتهاب، اكتشف خلال القرن السادس عشر وجرى عشر وجرى استعماله على أوسع نطاق خلال القرن السابع عشر. وقد أثبت فعاليتها في علاج مرض الملاريا ومع التقدم العلمي تم التراجع عنه بسبب أعراضه الجانبية . مؤخرا عاد الحديث بقوة عن دواء الكينا وعلاقته بعقار الكلوروكين المستعمل في علاج مرض كورونا باعتبار هذا الأخير مشتق صناعي لمركب الكينين المستخلص من لحاء شجرة الكينا وهو ما جعل الكثير من الناس يندفعون مؤخرا لشرب منقوع أوراق وقشور شجرة الكينا، رغم أنه لم يثبت علميا فعاليتها في علاج فيروس كورونا فضلا عن أعراضه الجانبية (www.alaraby.co.uk/society/2020/4/13).

قائمة المصادر والمراجع:

1. الأنطاكي داوود بن عمر، (2015)، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، تحقيق نبيل شاعر العرقاوي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ج1، وزارة الثقافة، دمشق.
2. بن حمادوش عبد الرزاق، (2011)، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر.
3. بن حمادوش عبد الرزاق محمد الجزائري، (1996)، كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
4. وولف جون، الجزائر وأوروبا 1500، (2009)، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر.
5. سعيدوني ناصر الدين، (1999)، من التراث الجغرافي والتاريخي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999، بيروت.
6. سعد الله أبو القاسم، (2005)، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
7. سعد الله أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
8. شونبيرغ أف، (2009)، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، ترجمة أبو العيد دودو، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر.
9. بوحجرة عثمان، (2015)، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م، مقارنة اجتماعية، أطروحة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر.
10. مجاهد يمينة، (2018)، تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران 1، الجزائر.
11. لزغم فوزية، (2013)، الأطباء الأوروبيون بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة عصور، عدد21، سنة 2013، جامعة وهران، ص.ص. 233-254.
12. غطاس عائشة، (1983)، الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الثقافة، عدد 76، الجزائر، ص.ص. 121-130.
13. شيبان سعيد، (1983)، من طب ابن رشد إلى طب ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري، ضمن أعمال مؤتمر ابن رشد، الجزائر 4-9 نوفمبر 1978، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
14. يارا حيدر (13.04.2020)، ما صحة منافع الكينا والكلوروكين في علاج المصابين بفيروس كورونا؟، <https://www.alaraby.co.uk/society/2020/4/13> (تاريخ التصفح 2020/05/25).
15. BERBRUGGER, (Adrien), (1879), D'un Mémoire sur la peste en Alger depuis 1552 jusqu'à en 1819 exploration scientifique de L' Algérie, Tome II Paris, Imprime Royale.
16. KHIATI Mostéfa, (S.D), la médecine en Algérie au cours de la période ottomane(xvi-xvix siècle), édition houma.
17. LECLERC Lucien, (1980), histoire de la médecine arabe, tome II, édition du ministère des habouse et des affaires islamiques, Rabat.
18. LECLERC Lucien, (SD), Kachef erremouz (révélation des inigmes) d'abdel rezzag el djezairy, ou Traité de matière médicale arabe d'abderrezzag l'algerien, traduit et annoté par Dr Lucien leclerc, Paris, J.B.B ailliére et Fils editeur.
19. SHAW Tomas, (1980), Voyage dans la régence d'Alger, Trad de l'anglais par J mac carthy, 2éd, Bousalama, Tunis.